الفصل الثانى

فى

الحروب الصليبية

لايجد المتصفح لتاريخ القرون الوسطي وما وقع فيها من الحوادث شيئا أشنع ولا أبشع من ذلك الذي يتجلى له وقتما يمر ببصره بين سطور تروي له تاريخ الحروب الصليبية . تلك الحروب التي يرى فيها الانسان أمم قارتين وقد تسلحوا ليقتتلوا ، والتي يجد فيها ديانتين تدافع كل منهما عن سيادتها وتنازع الأخرى امتلاك العالم بأسره ؛ وهي التي مثلت أفظع أدوار الوحشية وأكبر جناية وقعت على الأنسانية في العصور الوسطى ؛ وهي التي أوقعت أهل أسيا الغربية في بؤس مريع مرعب يفوق حد الوصف . فما كانت هذه الحروب إلا حادثة جنون من حوادث التاريخ كما يقول بعض كتاب الأفرنج إذ قد رمت المسيحية بنفسها في أحضان المسلمين في حملة تتلوها أخرى نيفاً وثلاثة قرون

هب الغرب دفعة واحدة وقام أهله على بكرة أبيهم في وجه آسيا بعد أن تركوا ما بينهم من النزاع والشقاق وظهروا على وجه البسيطة كأنهم أمة واحدة جديرة بالفتح والغزو . تجمع الكل تحت علم الصليب الذى وحد غاياتهم وجمع شتاتهم وقرب مطامعهم فكوّن جيشهم وأوجد قوتهم ، وما

البابا أربانوس الثاني

كنت لتقرأ في أفئدة القوم إلا كلمة واحدة هي القدس ولا تسمع منهم إلا ذكر الأراضي المقدسة التي بها قبر عيسى عليه السلام ؛ فإذا حادثتهم حدثوك بظمئهم إلى دماء المسلمين الذين استولوا في عرفهم على قبر المسيح ظلماً وعدواناً

هـذه هي الحروب التي أثارها الأفرنج على المسلمين في القرون الحادي والثاني والثالث عشر ، ظاهرها استخلاص الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين الذين كانوا ـ كما يزعم بطرس الناسك الداعي لها والمنادي بها ـ يقيدون حجاج المسيحيين بالسلاسل والأغلال ، ويمتهنون قبر المسيح عليه السلام ، ويعاملون أهالي تلك البلاد المسيحيين معاملة الذل والهوان ؛ قامت هذه الحروب وظاهرها ـ كما يقول البابا أوربانوس الثاني في خطاب الدعوة إليها ، الذي ألقاه في مدينة كلير مونت بفرنسا سنة ١٠٩٥ م ـ أنها ليست لأخذ الثأر عن الأهانات التي لحقت النوع الانساني فحسب ، بل عن تلك الأهانات التي أتاها الكفار (المسلمون) نحو الله هكذا كان ظاهرها عند العامة

أما باطنها وهو ما لم يستطع البابا نفسه إخفاءه فهو كما قال في خطاب الدعوة الآنف الذكر (إنها ليست لاكتساب مدينة واحدة فحسب ، بل لامتلاك أقاليم آسيا بجملتها مع غناها وخزائنها التي لا تحصى ؛ فاتخذوا حجة البيت المقدس وخلصوا الأراضي المقدسة من أيدي المختلسين لها ، وامتلكوها أنتم خالصة لكم من دون أولئك الكفار ، فهذه الأرض كما قالت التوراة « تفيض لبنا وعسلا)

وكثيراً ما نجد بين سطور روايات المؤرخين الذين كتبوا عن هذه

الحروب مايدلنا على ذلك دلالة لامعنى للشك فيها ، فقد قال مثلا المؤرخ الانجليزى استيفن سن في كتابه «الصليبيون في الشرق» (ولم تكن الحروب الصليبية سوى حملات عسكرية لتأسيس قوة لاتينية في سوريا وفلسطين) والمعتدلون من هؤلاء المؤرخين يقولون إن الحروب الصليبية كانت نتيجة روح دينية وأخرى حربية انتشرتا معاً في أرجاء أوروبا في القرون الوسطى . وفي اعتقادى أن الروح الدينية التى يقولون عنها إنها كانت منتشرة إذ ذاك لم تكن كذلك ، ولم يكن يشعر بها ويقدسها سوى القساوسة والكهنة وغيرهم من الطبقة الروحانية ، بدليل ما يقوله استيفن سن المتقدم الذكر من أن عامة القوم كانت تعيش عيشة بعيدة عن الدين بما كانوا منهمكين فيه من القتال والنزاع والسلب والنهب

قام البابا يحرض القوم بما له من المنزلة فى النفوس ، والمكانة في القلوب ، مدفوعاً بعامل يخفيه ، فألبسه لباس الدين ، لعلمه أن الدعوة الدينية أشد تأثيراً ، وأقوى على النفوس من غيرها ، فهى العقيدة وهى الشعور الوجداني الموروث ، والأنسان أحرص ما يكون على تراث آبائه وأجداده

اتخذ البابا من أساليب الخداع ما جادت به قريحته ، وحركته إليه مطامعه ، فأعلن أن كل من اشترك فى هذه الحروب ، غفرت له ذنوبه ودخل فى حماية الكنيسة ، وأن ماله وأهله وذويه جميعاً في حماية الكنيسة وأن متاعب الحرب وأخطارها ليست إلا تكفيراً عن الذنوب

أضف إلى هذا ما قاله من الكلام المثير المهيج للعواطف كقوله (أيها الجند

المسيحيون ، لقد كنتم تبحثون من غير جدوى وراء إثارة نيران الحروب والفتن فيما بينكم ، أفيقوا فقد وجدتم اليوم داعياً حقيقياً إليها ، لقد كنتم سبب انزعاج مواطنيكم وقتاً ما ، فاذهبوا الآن وازعجوا البرابرة ، اذهبوا وخلصوا البلاد المقدسة من أيدى الكفار ؛ أيها الجند ، أنتم الذين كانوا سلع الشرور والفتن ، ألا هبوا اليوم وقدموا قواكم وسواعدكم ثمناً لأيمانكم ، وتسلحوا بسلاح الدين والتقوي ، فانكم بذلك تنالون الجزاء والنعيم الدائم ، إنكم إن انتصرتم على عدوكم كانت لكم ممالك الشرق ميراثاً ، وإن أنتم خذلتم فستموتون حيث مات عيسى عليه السلام ، فلا ينساكم الرب من رحمته ، فيحلكم محل أوليائه ؛ هذا هو الوقت الذى تبرهنون فيه على أن فيكم قوة وعزماً وبطشاً وشجاعة ، هذا أوان تظهرون فيه شجاعتكم التى طالما أظهرتموها وقت السلم ، وإذا كان من المحتم أن تثأروا لأنفسكم فاذهبوا واغسلوا أيديكم بدماء أولئك الكفار ، وهكذا حتى يقول بعد أن رآهم يبكون متأثرين بخداعه ومكره (الحمد لله ، لقد أصبح جند النار جنداً لله ؛ يا قوم ! متى دعاكم عيسى إلى مساعدته فلا تتواروا فى بيوتكم متقاعدين ، ولا تفكروا في شئ إلا فيما وقع فيه إخوانكم المسيحيون من الذل والهوان والمسكنة ، ولا تستمعوا إلا إلى القدس وزفراته ، واذكروا جيداً ما قاله لكم المسيح « ليس منى من يحب أباه وأمه أكثر من محبته ياى ، أما الذي يترك بيته ووطنه وأمه وأباه وزوجه وأولاده وممتلكاته ومقتنياته حباً فىّ ومن أجلى فسيخلد فى النعيم ، وسيجزيه الله الجزاء الاوفى » اه بتصرف قليل عما ورد في كتاب « تاريخ

المؤرخين » المجلد الثامن

بمثل هذا قام البابا وأعوانه يدعون قومهم ويثيرون عواطفهم ذاكرين لهم الكثير من الأباطيل والمفتريات على ما يأتيه المسلمون في الشرق ويتهمونهم بما شاءت أهواؤهم ، ولو علم سكان أوروبا إذ ذاك ما المسلمون عليه من إطلاق حرية الشعوب المغلوبة في إقامة شعائرهم الدينية وعاداتهم ، ولو أنهم أدركوا ما أوجبه الدين الأسلامى على أمرائه وحكامه من تأمين الذمى على ماله ومتاعه وأهله ونفسه وعرضه ، ولو سمعوا ما كان يقوله النبي صلى الله عليه وسلم (من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فأنا خصمه يوم القيامة) لو أدركوا هذا لعلموا أن هذه النيران التى كانت تندلع من أفواه الداعين إلى الحرب إنما كانت تذكيها مطامع شخصية ، لكنهم معذورون ، فقد كانت أوروبا في هذا الأوان تموج في بحر الجهالة والعمى قد انتابها الفتن ولحقت بها المحن من كل نوع ، فانتشرت اللصوصية وعمت المجاعات وثارت الفتن حتى أصبحت البلاد والعباد في خطر ليس وراءه خطر

اختلف المؤرخون في الدواعى التي دعت إلى تلك الحروب فمنهم من يقول إن الدولة السلجوقية التى مر ذكرها كانت قد امتلكت آسيا الصغري وأسست سلطنة فى بلاد الروم التى كانت تابعة للأغريق وهموا بالاستيلاء على القسطنطينية نفسها ، فقام أمبراطورها يستغيث باهل أوروبا ويطلب منهم المعونة على ردغارة المسلمين ، وكاتب البابا فى رومة باعتباره أكبر رأس في أوروبا ووعده جزاء مساعدته أن يضم الكنيسة الشرقية التى مقرها القسطنطينية إلى الكنيسة الغربية فى رومة فتصبح أوروبا كلها خاضعة لكنيسة واحدة

بطرس الناسك

هى كنيسة رومة أو بعبارة أخرى خاصة للبابا . على أن بعضهم يضيف إلى هذا ما كان من ميل بابا رومة وقت هذه الدعوة إلى الظهور على بعض الملوك والزعماء الذين كادوا يخرجون عن طاعته، فأدلى بالأمر إلى بطرس الناسك ، وكان فصيحاً لسناً ، فصدع بالأمر وقام به خير قيام ؛ والقارئ لتاريخ هذا الرجل يدهش كثيراً للظروف التى أحاطته ويعلم أنه رسول البابا بلا نزاع

ويقول باشيوليه وزميله فى قاموسيهما الجغرافي التاريخي تحت كلمة «الحروب الصليبية » (أما أسبابها فكانت عند عامة شعوب أوروبا الاعتقاد الدينى والمزايا الروحانية التى كانت تنعم بها الكنيسة فى رومة ، أما عند الأمراء والزعماء فكانت حب الرحلات غير العادية الخطيرة والأمل العظيم في الاستيلاء على ممتلكات واسعة في الشرق)

وغير هؤلاء يقول« ولما تزايد عدد الحجاج الأفرنج إلى القدس، وسقطت الشام وفلسطين وآسيا الصغرى في أيدى الأتراك السلاجقة، بدأ السلام السائد بين المسلمين والمسيحيين ينهار ركنه وتهوى دعائمه، فاضطربت العلاقات التجارية بين آسيا وأوروبا، وخافت المدن التجارية الأوربية الواقعة على البحر الأبيض المتوسط مثل البندقية وجنوة وبيزة وغيرها من استيلاء السلاجقة على الأسواق الشرقية ، خشية أن تغلقها في وجهها وحينئذ يكون فقرها وخرابها »

وعندى أن هذا من أقوى ما شجع القوم على الرحيل لحرب المسلمين أغفله جمهور المؤرخين وهو سبب معقول مقبول وله نظائر شتى فى أسباب

الحروب الأوروبية الأخيرة، بل إن ذلك قد دعي الفواطم وهم مسلمون إلى محاربة السلاجقة المسلمين غيرة على مصالحهم فى البلاد التى كانت لمصر واستولى عليها السلاجقة بالشام

وهنا لا أجد بداً للتنبيه إلى ماقاله جماعة من المؤرخين من أن الفواطم فى مصر عند ما رأوا أن السلاجقة قد قويت شوكتهم واستفحل أمرهم في آسيا واستولوا على القدس وامتدت أيديهم إلى الممتلكات المصرية خافوا شرهم فراسلوا الأفرنج فى رومة يحببون إليهم الاستيلاء على بيت المقدس، ولو صح أنهم راسلوا أهل أوروبا فلا يكون ذلك مع أهل أوروبا الغربية ، إذ لم تكن للفواطم بهم علاقة ، وإنما يصح أنهم كاتبوا أمبراطور القسطنطينية لما كان بين المسلمين وبين بلاده من العلاقات قديماً ، ولانه موتور من السلاجقة ، فيصح للفواطم الاستعانة به ولكن بالرغم من هذا كله فانى أرى أن شيئاً من ذلك لم يحصل ، إذ كيف يتفق أن الفواطم يراسلون الأفرنج لمحاربة المسلمين وهم بنفسهم قد قاموا بمحاربة الأفرنج ودافعوا عن عسقلان لآخر لحظة من قوتهم الحربية

وعلى كل حال فقد تجمعت ظروف مختلفة وميول متباينة ساعد بعضها بعضاً فكونت أسباب تلك الحروب الطاحنة التى عادت على العالم الأوروبي بنصيب كبير من حضارته الحديثة

أما نجاح الأفرنج فى حملاتهم فقد نجم أولا عما تصادفه كل دعوة جديدة من النشاط ، ولما قام بين أعضاء البيت السلجوقي من النزاع بعد موت السلطان ملكشاه العظيم . جاء الأفرنج إلى الشام وأهله متفككون

متنافسون، بينما الرؤساء الروحانيون فى أوروبا يبعثون في القوم الهمم لأرسال المؤن والأمدادات ، فكان تيار هذه الحملات لا ينقطع ، ولولا هذا لما استطاعوا أن يثبتوا لحظة واحدة هناك ، فلما ملت أوروبا وتعبت من كثرة ما ترسله من المساعدات للملكة كالبحر ـ كما يقول صاحب كتاب القدس ـ تبتلع كل ما يصل إليها ولا ترسل شيئاً ، بدأ نجم هذه الحملات يأفل وسعدها يهوى وظلها يتقلص، وعجل لها الوهن أسباب أخرى نحن ذاكروها هنا على سبيل الأيجاز فنقول:

أسس الأفرنج في أول أمرهم فى آسيا أربع ولايات هى الرها وانطاكية وطرابلس والقدس، والناظر إلى الخريطة يرى أن الأوليتين واقعتان في الشمال تتاخمان بلاد المسلمين الذين كانت لهم القوة والسلطان فى تلك الجهات ،فلو نظر الأفرنج بعين الأخلاص والتضامن في العمل، لأقاموا الحصون والمعاقل حول هاتين الولايتين، ولكنهم لما كانت الاثرة رائدهم والمنفعة الشخصية قائدهم ، اهتم كل بما فى يده غير ناظر إلى غيره وما يحيط به من الأخطار، ولما كان بيت المقدس هو قبلة الجميع ومحط أطماعهم لأنه المكان المقدس، وكان لمن استولى عليه من المكانة ماليس لغيره ، توجهت اليه أنظار المسلمين والأفرنج على السواء فأهمل هؤلاء الأفرنج أمر غيره من الولايات التى فى أيديهم فلم يحصنوها، وهاجمهم المسلمون من الشمال فلم يجدوا صعوبة ما فى الاستيلاء على هذه الولايات . قام عماد الدين زنكى والد محمود نور الدين زنكى واستولى على الرها سنة ١١٤٤ م وبذلك قضى على آمال الأفرنج بالشام وفلسطين

فلو لم يطمع كل واحد من قواد الأفرنج فى تأسيس ملك عظيم له وحده في سوريا ، لما عادت أوروبا بأجمعها خائبة أمام طائفة من المسلمين وإليك ما قاله استيفن سن « أما المسائل الحربية فكان ينظر إليها كل قائد بما يراه صالحاً لنفسه ، فاذا اجتمع القواد للبحث ، رأيت الغيرة بادية على وجوههم والشكوك والظنون السوء ناشرة أجنحتها على مجتمعهم ، فتمتد يد التفريق إلى نثر عقدهم فتبعثره أيدى سبا »

لم يكن امتلاك الأفرنج للشام عاما كل جهاته بل ظلت البلاد الداخلية ذات المركز الهام فى سوريا في أيدى الأمراء المسلمين كحلب ودمشق وغيرهما ، وكان بقاؤها مع المسلمين عاملا من أكبر العوامل فى اندحار الأفرنج وخذلانهم ، فكانت مبعث قوة المسلمين ومصدر وحدتهم بعد تفككها ، فظهر عماد الدين ومحمود نور الدين زنكى وصلاح الدين يوسف بن أيوب وقد بلغ المسلمون قبل وفاته حظاً عظيما من المنعة والقوة وأصبحوا أصحاب السلطان فى سوريا وفلسطين ، واستكان الأفرنج وضعفوا حتى ليخيل إلى الانسان أن علة مهلكة قد قضت على سلطانهم

استولى عماد الدين زنكى على الرها سنة ١١٤٤م كما تقدم ثم جاء ولده محمود نور الدين فضم حلب ودمشق إلى ملكه ولم تكونا في أيدى الأفرنج ، فظهرت بهما قوته ، فعلت كلمته عليهم ورجحت كفة المسلمين بعد أن دانت له مصر على يد صلاح الدين وعمه أسد الدين شيركوه ، فاضطرب الأفرنج وأخذ نور الدين يستولى على مالهم فى الشمال ، حتى تقلص ظلهم من معظم جهات أنطاكية وطرابلس ثم مات هذا الرجل العظيم وخلفه صلاح الدين

واستولى بعزمه وقوته على بيت المقدس، فهوت قوة الأفرنج وأخذت البلاد تخرج من أيديهم، ولم يبق إلا ما تركه لهم صلاح الدين في عهده مع رتشارد قلب الأسد سنة ١١٩٣م

ثم جاء خلفاء صلاح الدين الأفرنج تتأجج فى صدورهم نار البغضاء، يريدون استرداد ما فقدوا فقصرت عنه أيديهم حتى انتهى أمرهم بالزوال حين قام الملك الأشرف بن السلطان قلون وضربهم الضربة الأخيرة التي قضت على آمالهم فسلمت البلاد كلها إليه سنة ١٢٩١م

على أنه يجب ألا يغيب عن البال حال الجيوش التى تكونت منها تلك الحملات فكثيراً ما اشتملت على أناس من أحط القوم، وهم أولئك المجرمون السفاكون الذين لوثوا بقية المحاربين بشرهم ورجسهم وسفالة أخلاقهم. وقد نسب سان برنار عدم نجاحهم فى احدى الحملات كما يقول لوبون فى كتابه (الحضارة العربية) عند الكلام على الحروب الصليبية إلى انغماسهم في الفسق والفجور

أضف إلى ذلك ما كان من تسلط النساء وتأثيرهن فاليهن يرجع حظ غير قليل من فشل الصليبيين

فاذا لم ننس أن الأفرنج قد نقلوا فى آسيا ما ألفوا من النظام الاقطاعى فى أوروبا، لم ندهش لما نشأ عن ذلك من إفقار البلاد وتخريبها كما يقول لوبون المذكور بعد أن كانت غنية فى أيام حكامها النابغين من العرب

نشأ عن هذا النظام حاجة القوم إلى المال وحرصهم على تحصيله وليس حال الملك املريك أو أمورى بخاف على من علم أمره فى غزوته

الثالثة لمصر مما سيجيء ذكره

على أنه بقي سبب آخر هو كثرة فتك هؤلاء الأفرنج بالمغلوبين عند ابتداء أمرهم ، فجعلهم ذلك موضع سخط الناس حتى المسيحيين منهم، ولو أنهم أنصفوا فأبقوا على المغلوبين وعاملوهم بالحسنى ، لاتخذوا منهم درعا تقيهم شر المغير عليهم، ولما توقفت حياتهم على مدد أوروبا التي لم يكن بد من أن تنتهي إلى السآمة من امدادهم وإعانتهم يوماً ما

يغفل جمهور المؤرخين عن ذكر أسباب انحطاطهم، ويعللون ذلك بانتصار صلاح الدين لانه جمع شتات المسلمين ووحدهم . ولا شك في أن وحدة المسلمين قد كان لها أثر عظيم فى انتصارهم، غير أن من الحق أيضاً ان لا نغفل ما جاء فى كتاب تاريخ المؤرخين عمل النيمس حين يقول « ولولا تحيز المؤرخين والمؤلفين وامتناعهم عن الحط من قدر ما كان يأتيه المحاربون ، لوجب عليهم أن يقولوا إن رذائل المسيحيين فى الأراضي المقدسة لها أثر كبير فى ضياع مملكتهم فى فلسطين إن لم يكن السبب بعينه »

ومهما يكن من أمر هذه الحرب وما سبقها من العلل وصحبها من الظروف ، فقد أدت خدمات جليلة لأوروبا رغماً عما أهلكته من أنفس أهلها وأفنت من أموالهم وأضاعت من سلطان بعضهم ونشرت من روح التعصب الممقوت وأفقدت الديانة المسيحية ـ كما جاء في كتاب تاريخ المؤرخين السالف الذكر ـ ما فيها من حب الأحسان والأعتدال والرفق

ومع أن أوربا لم تنل ما كانت تتمنى من الأراضى المقدسة ، ومع أنها خضعت لما أنشأته هذه الحرب من ذلك النظام المرذول ، نظام غفران الذنوب الذى اتخذه بعض القوم تجارة وبالغوا فيه حتى قام شمال أوروبا يدعو إلى الأصلاح الدينى ، مع هذا كله فقد ملأت هذه الحرب الطاحنة قلوب الأفرنج عبرة وعظة ، فقد سلكوا مسلك العقل والحكمة فتركوا ما كان بينهم من نزاع وشقاق وحولوا وجههم إلى النظر فى شؤنهم الأجتماعية العامة ، فأخذوا فى نشر العلوم والمعارف وأخذت الأنظمة السياسية شكلا غير شكلها الاول ، والحالة الأجتماعية تتغير وتتبدل ، والخرافات التى كانت تحكم على العقول انتهى أمرها وذهب تأثيرها ، فانحلت العقول من أسرها ، ونظرت إلى ما حولها فرأت أن سلطة البابا وأهل الدين قد إمتدت إلى ما لا يطاق ، فتحركت الهمم للأصلاح الدينى . ويقول باشوليه وزميله فى قاموسيهما الجغرافى « وقد عُوضت الخسارة المادية التى أصابت المسيحيين بأنتصارات باهرة في النظام السياسى والأدبي » ثم يقول « وكذلك القن الذى حمل الصليب نال حريته الشخصية ، وانتشرت الملاحة وترقت فزادت قوة بيزة وجنوة والبندقية التى أكثرت من مراكزها التجارية في البحر الأبيض المتوسط ، وإستفادت الصناعة والزراعة أيضاً بما عرفه أهل أوروبا من وسائل جديدة ومحصولات كانت مجهولة لديهم كالحرير وصناعته والصباغة والزعفران وشغل المينا وشغل المعادن والأحجار الكريمة ، وأنتقلت زراعة قصب السكر إلى صقلية ، وتمكن السياح من دخول بعض مجاهل آسيا »

مما مر يمكن القول بأن أهل الشرق هم الذين أفاضوا على أهل الغرب من حضارتهم ينبوعا اغترفوا منه بعض حضارتهم الحالية وأقطعوهم من بنات أفكارهم ما بعث حياتهم العقلية على الرقى

وقد قال صاحب المعالى إسماعيل صدقى باشا وزير الأوقاف سابقاً ووزير المالية حالا ضمن خطاب ألقى فى حفلة من الحفلات « هذا وقد أصاب ديار أوروبا من ناحية الشرق وابل من غيث الحضارة العربية بما حمله أهلها من ديار الشرق أيام الحروب الصليبية فكأنه أصاب أرضا نباتها أذكى واجدى فأينعت ثمارها واخضلت ربوعها في طرفة عين »

ولا يغيبن عن البال أن حضارة أوروبا الحالية كانت قد سبقتها حضارة بغداد وقرطبة ، فاستفاد الناس الذين كانوا يميلون للعلم ، وتعلموا كثيرا مما جعلوه بذورا للعلم والمعارف فى بلادهم ، فان زعم المؤرخون أن سقوط القسطنطينية في يد الأتراك العثمانيين هو الذى سبب إحياء العلوم والمعارف في أوروبا وأظهر النهضة الأدبية ، فلا يصح إلا أن نعترف بأن بذور هذه النهضة لم يبذرها سوي اختلاط أوروبا بأهل الشرق أيام الحروب الصليبية

وعلى كل حال فقد فتحت هذه الحروب فتحاً جديداً فى أوروبا ما كان القوم يحلمون به ، فقربت بين الشريف والوضيع وأضعفت من الأوهام الناشئة عن الدين حتى اعتقد بعض الناس أن صلاح الدين يصح أن يكون من شجعانهم وفرسانهم ونبلائهم

هذه هى الحروب الصليبية وتلك هى أسبابها ودواعيها ، وهاهى

نتائجها وثمارها . ولما كان صلاح الدين هو بطلها وعنه أخذ الناس أمثلة في الهمة والأمانة ولين القلب والرحمة والشفقة، مع شدة بأس وإقدام وشجاعة وقوة في الحق ، وجهت همتي نحو ذكر حياته وتاريخه ، حتى يعرف قومي بطلا من أبطال العالم لا أقول الشرق فحسب بل العالم بأسره، وها أنا ذا أذكر تفصيل حاله وما آل إليه أمره مبتدئاً بذكر قومه وعشيرته لما في ذلك من توضيح أحواله وتفسير أعماله التي قام بها

قومه وعشيرته

الأكراد هم جيل من الآريين ليسوا بعرب ولا ترك وليس ببعيد أن يكونوا خليطا من فرس وعرب

عاش الأكراد في زمنهم الأول عيشة البدويين وسكان الجبال ، فأقاموا زمناً طويلا في الجهات الجبلية التي بين بلاد الفرس وآسيا الصغرى ، وكانوا يشبهون عرب الجاهلية في عصبيتهم القومية وفي ميلهم إلى السلب والنهب ، كما أنهم يماثلونهم في كرمهم وإقرائهم الضيف والمحافظة على الشرف والشجاعة والأقدام ، فكانوا أهل فروسية يحبون الحرب والقتال والغزو ، يشارك رجالهم نساؤهم في هذه الصفات ، لذلك اشتهرت من بينهم نساء كثيرات قمن بقيادة الجنود وشن الغارات . ولما ظهرت فيهم هذه القوة وعرفت عنهم هذه المقدرة الحربية كان كثيراً ما تستخدمهم الأمراء المجاورون لبلادهم للعمل في جيوشهم ، فكانوا قوة لمن إعتز بهم وعوناً لمن طاب معونتهم ، وكانوا مع هذا بعيدين عن الحضارة ومظاهرها

والتأثر بها ، شديدى المراس لا يمكن الأجنبى أن يحكمهم أو يتسلط عليهم ، بل كانت أشرافهم هم حكامهم ، كل قبيلة من قبائلهم المتعددة منفردة بحكومة ، غير أن الجميع يجمعهم لسان ودين . ولما كانوا أهل بدواة عشقوا الحرية وكلفوا بالاستقلال

أما لغتهم فالأيرانية بلهجة قريبة جداً من اللغة الفارسية ، ويقول ملطبرون فى كتابه (الجغرافيا العمومية) الذى ترجمه رفاعه بك « والأكراد يتكلمون اللغة الفارسية مشوبة بألفاظ عربية وخلدية أى عراقية ، ويكتبون بالفارسى ، وفى كل قرية مُلىٌّ يعنى عالما خبيراً بلغة الفرس » وهم والارمن من أصل واحد ، غير أن أولئك أسلموا ، وبقى هؤلاء على دينهم الأول ، ولذلك دامت بينهم العداوة والبغضاء ، ويقول ملطبرون فى كتابه المتقدم « وهم الأكراد — مسلمون ولهم عقائد زائغة يظهر أنها بقايا عندهم من دين المجوس ؛ وينقل العثمانيون عنهم أنهم يعظمون الشيطان وهو إله الشر عند قدماء الفرس المسمى عندهم أهريمان » ويذكر بعض المؤرخين أن الاكراد لما كانوا تحت سيطرة الفرس ، كانوا على الدوام يظهرون العصيان ويقومون بالثورات ويخالفون ملك الفرس كثيراً ، ولما خضعوا للعثمانيين لم يكفوا عن مخالفة أوامرهم فلم يكترثوا بفرماناتهم ، لذلك لم تتغير دولتهم عما كانت عليه فى زمنهم القديم ألبتهم إلا تغييراً بسيطاً

والخراج عندهم التزام تقوم كل قرية بدفع الأتاوة لشيخها وهو يدفعها لامير القبيلة ، وكثيراً ماتثور القبائل الصغيرة على أمرائها ويخرجون عليهم فيعزلونهم إذا إستطاعوا ، فكانت هذه الفتن وتلك الثورات سبباً

في انفصال عشائر عدة اتخذت حياة الرحالة ومعيشة التنقل كالعرب والتركمان ، فصاروا رعاة ماشية وقطاع طرق

والكردى يخالف التركمانى فى كثير من العادات، فالأكراد يأخذون مهر بناتهم، أما التركمان فيدفعون مهرهن لأزواجهن ، والتركمانى لا يكترث بشرف أصله ولا بنباهة نسبه وحسبه ، أما الكردى فانه يفاخر بهذا كله

والأكراد بيض البشرة معتدلو القوام ؛ وقد إختلف المؤرخون في تسميتهم ، فيقول ملطبرون في كتابه المذكور « وفى جبلى زغروس ونيغاطس اللذين يحدان ميديا من جهة الغرب عدة أمم متوحشة أشهرها أمة الكرطية ، والظاهر أنهم هم الامم الذين سماهم زنفون كردوخية ، وسماهم بلوترخوس غردوينية ، وسماهم إمينمرقلين كردوينية ، وسماهم المتأخرون من الجغرافيين كرداً أو أكراداً»

وقد جاء في كتاب طبقات الأمم لجورجي زيدان وهم — الأكراد — أمة قديمة كانت تسمي فى التاريخ القديم كردوخى » على أنه يظهر من تقارب هذه الأسماء أنه لم يكن هناك اختلاف فى تسميتهم ، غير أن لهجات لغة الأكراد كانت تملى على المؤرخين أسماء متباينة الشكل فاذا مادقق الناظر فيها قليلا وجدها جميعها ترجع إلى أصل واحد وكلمة واحدة يختلف النطق بها باختلاف لهجة القائل لها كما هو الحال فى اللهجات المصرية

كذلك تعددت الروايات في أصولهم فمن قائل إن لفظة كرد معناها

ذئب ثم أطلق الاسم على السكان، لأن بلادهم كانت مأوى للذئاب. على أن أكثر العلماء متفقون على أن الأكراد من نسل آرى كانوا يسكنون قديما جبال حوردبان التى تفصل بين أرمينيا وميديا، ثم إنتشروا بعد ذلك فيما بين نهرى الدجلة والفرات ثم أطلقوا على الجهات التى نزلوها اسم كردستان أي بلاد الكرد، وهم أناس وحشيون يسكنون الحرج (الأحراش) ويعيشون من قطعان الحيوان، ولكنهم بعد ذلك تاجروا مع الأتراك المتوحشين فاقتبسوا منهم وحشيتهم وفظاعتهم وقساوتهم وأخلاقهم الحربية

ونذكر من باب الفكاهة ماقاله أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الكاتب الدينورى فى كتاب المعارف ص ٢٠٨ المطبوع بمصر سنة ١٣٠٠ هـ «تذكر العجم أن الاكراد فضل طعم (بيوراسف) وذلك انه كان يأمر أن يذبح له كل يوم إنسان ويتخذ طعاما من لحمه وكان له وزير يقال له (إرمائيل) فكان يذبح واحدا ويستحيي واحداً ويبعث به إلى جبال فارس فتوالدوا فى الجبال وكثروا

ورغما مما كان عليه الأكراد من البداوة فى معاشهم وأحوالهم، فقد كانت لهم بعض حرف تناسب حالهم هذه، فكان لهم ولع خاص بتربية المعز المسمى أنقرة ذى الشعر الطويل، وكانوا ينسجون المنسوجات الصوفية والقطنية والحريرية، كما أنهم كانوا يعرفون قليلا من صناعة الجلد والسلاح المستعمل في بلادهم؛ كل هذه الحرف والصناعات توافق ما كانوا عليه من البداوة، وقد أوجدتها الضرورة فيهم على مثال تلك التى توجد بين السودانيين مثلا وسكان أواسط افريقية

من هذه الأمة ومن أكبر القبائل فيها وأشرفها ، ظهرت أسرة صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب بن شادى أو شاذي ـ كما يقول بعض المؤرخين ـ ابن مروان ويدعى بعضهم أن مروان هذا هو مروان الخليفة الأموى ، وذلك حتي يوفق هذا البعض بين صلاح الدين وبين عظمته التى عرفت عنه بعد ؛ وما أدرى لم يلتزم هذا التعليل الذى لا معنى له إذ ليس من المحتم أن تكون العظمة وراثية ، فلا تنتقل من أسرة إلى أخرى أو من فرد إلى آخر ، وهذه حوادث التاريخ توضح لنا بأجلى بيان أن أكثر النابهين وأعظم الفاتحين إنما كانوا من أسر خمل ذكرها لولا ظهورهم وضاعت أصولها لولا شهرتهم ، لهذا يجدر بنا ألا نسير مع هؤلاء الذين يدعون أن مروان هذا هو الخليفة الأموى

يقول ابن خلدون فى الجزء الخامس من تاريخه ص ٢٧٨ عند الكلام على الدولة الأيوبية مانصه « وجدهم هو أيوب بن شادى بن مروان بن على بن عشرة بن الحسن بن على بن احمد بن على بن عبد العزيز بن هدبة بن الحصين بن الحرث بن سنان بن عمر بن مرة بن عوف الحميرى الدوسى هكذا نسبه بعض المؤرخين لدولتهم»

على أن في إجماع المؤرخين متقدمهم ومتأخرهم على عدم ذكر جد لهذه الأسرة بعد مروان ما يدل على أن ما ينسبه بعض المؤرخين هذا هو أيضاً من قبيل محاولة إثبات ما لهذه الأسرة من الشرف وبعد الصيت من القدم ، إذ فى ذكر سلسلة النسب مايبرهن على أن المؤرخين متتبعون سيرة أفرادها وأن الزمن نفسه حافظ لتلك السير . والقريب إلى التصديق ما

رواه استانلى لين بول إذ يقول « ولقد كانت دوين تسير نحو الانحطاط عند ما كان جد صلاح الدين المسمى شادى بن مروان قد آل إليه تراث مركز أسرته من الشرف والاحترام وسمو المنزلة » ثم خشى المؤرخ أن قد يتبادر إلى ذهن القارئ أن شادى هذا كان له من الملك والسلطان ما يعزوه المؤرخون لمثل من هذا وصفه فقال « وشادى هـذا ليس إلا اسماً ، فلا يعرف له تاريخ ولا تذكر له أوصاف سوى أنه كان صـديقاً مخلصاً وصاحباً أميناً لبهروز الأغريق الذى كان عبـداً في دوين وارتفع حتى وصل إلى مركز سام في حكومـة الترك ، حتى أصبح معلما ومربياً خصوصياً لأولاد السلاجقة » وهذا بعد أن فر من دوين بسبب خصى لحقه ، واتصل بدولة مسعود بن ملكشاه وتعلق بخدمة مربى بنيه . حتى إذا هلك ذلك المربى أقامه السلطان مقامه فظهرت كفاءته وعلا فى الدولة محله ، فأرسل إلى شادى بن مروان لما بينهما من الألفة وأكيد الصحبة ، فقدم عليه ومكث عنده زمناً ، فلما تولى بهروز من قبل السلطان شحنة (محافظة) بغداد سار اليها مستصحباً شادى وبنيه ، ولما أقطعه السلطان قلعـة تكريت ولى عليها شادى نائباً عنه فيها ، فهلك وهو والٍ عليها ، فولى بهروز مكانه إبنه نجم الدين أيوب وهو أكبر من أخيه أشد الدين شيركوه بن شادى كما يرويه ابن خلكان ، ولشادى هذا قبة على قبره هناك

فلو كان لشادى ملك فى دوين وسلطان بها لما رحل عنها إلى بغداد ثم إلى تكريت ليكون محافظاً عليها ، ولفضل الأقامة فى بلده بين أهله وذويه ، يأمر فيطاع ، ويعتز بعصبيته فتعزه ، ويستنصر بها فتنصره

والذى يستطيع المرء إدراكه أن شادى هـذا كان رئيس قومه في قرية أجدنقان فقط (قرية على باب دوين) وليس أميراً فى دوين ؛ وعلى أى حال فـلا يمكن أن يكون هـذا البيت بيت ملك وسلطان قـديم باجماع المؤرخين على عـدم معرفة جد لهذه الأسرة فوق مروان

جاء فى دائرة معارف البستانى تحت كلمة (أيوبيون) ما نصه « عائلة كردية ملـكت مصر والشام وعرفت بالدولة الأيوبية أو دولة بنى أيوب وهذه العائلة من أشراف الأكراد من قبيلة منهم تعرف بالروادية من بطون الهذيانية احدى قبائل العجم » فـكأنه بذلك يريد أن ينسب القوم إلى العجم لا إلى غـيرهم ، ثم يقول « ينتسبون إلى نجم الدين الملك الأفضل أيوب بن شادى بن مروان الكردى ؛ نشأ نجم الدين هذا وأخوه أسد الدين شيركوه ابنى شادى ببلدة دوين من أرض أذربيجان من جهـة أرّان وبلاد الكرج ودخلا بغداد وخدما مجاهـد الدين بهروز شحنة بغداد » وفى هذه العبارة ما يدل على عدم ذهاب شاذى إلى بغداد واستعماله على تكريت كما تقدمت الأشارة اليه ، والظاهر أن شاذى خدم فعلا في تكريت لا سيما إذا استندنا إلى ما كان بينه وبين مجاهـد الدين بهروز من الرابطة والألفة السابقة من جهة ، ومن جهة أخرى وجود قـبر له فى تكريت ذى قبة عالية تدل على ما كان له من المـكانة والمنزلة بين أهل تكريت مع كونه غريباً عنهم